المحاضرة التاسعة قصة النبي ابراهيم "عليه السلام " والشجاعة على الحق

ولادته : ولد النبي ابراهيم (عليه السلام) في بابل التي كانت تحكمها حكومة جائرة وقوية وهي حكومة النمرود وكان يعتبر نفسه الرب الاعلى ، وكان القوم يعبدون الأصنام ، والدولة في ذلك الوقت كانت تدافع عن تلك الأصنام بقوة ، لدرجة لو صدرت أي أهانة من أحد تجاهها يعتبرونها خيانة عظمى .

وينقل المؤرخون أن المنجمين توقعوا أن يولد شخص يحارب النمرود بكل قوته لذا سعى جاهداً لأن يوقف ولادة هذا الشخص أو أن يقتله حين ولادته ، إلا أنه لم يتمكن من ذلك لأن أمه استطاعت أن تخفيه في زوايا الغار القريب من مولده ولمدة ١٣ عام وبعضهم قال ١٥ عام .

وبعد أن ترعرع في مخفاه بعيداً عن انظار شرطة نمرود ، ووصل إلى سن الشباب صمم على الخروج والنزول الى المجتمع ليشرح لهم دروس التوحيد التي استلهمها من دخيلة نفسه وتأملاته الفكرية .

نبوته :

من الراجح أن أول اشارات النبوة تجلت أثناء حديثه مع عمه آزر قال تعالى : { إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً} [مريم : ٤٢] ومن خلال هذه الآية يتضح إن ابراهيم يبدأ دعوته العامة بأبيه ، لأن النفوذ في الأقربين أهم وأولى ، كما حدث مع النبي محمد " ﷺ " قد أمر أولاً بدعوة عشيرته الأقربين .

فدعوة ابراهيم كانت مملوءه باللين واللطف والرعاية فمرة يوقل له : { إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً} ومرة يقول له : {ا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً } ومرة يقول : {يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً } [مريم : ٤٤]

ثم يذكر وينبه مرّة أخرى بعواقب الشرك وعبادة الأصنام {يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً } [مريم : ٤٥]

فماذا كان جواب آزر تجاه هذه الكلمات اللينة والدعوة الطيبة ؟

قال آزر { قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً } [مريم :٤٦] ومعنى الآيه : إن آزر لم يكن موافق على لهجة إبراهيم في تحقيره للأصنام ، فهدد إبراهيم بالرجم وهو أشد أنواع القتل ، واعتبر وجود ابراهيم لا يطاق فقال له " اهجرني ملياً " أي ابتعد عني دائما وإلى الأبد .

وهكذا بالرغم من كل الغلظة والقسوة التي بدرت من آزر تجاه ابراهيم ، فقد سيطر ابراهيم على اعصابه ، كبقية الأنبياء والقادة الإلهيين ووقف بكل سمو وعظمه وقال { سلام عليك } وهكذا ودع ابراهيم آزر ثم أظاف { سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً } مقابل تلك الخشونة التي صدرت من آزر وعده بالاستغفار وطلب مغفرة الله له .

الدعوة إلى التوحيد :

كان ابراهيم " عليه السلام " يدعو قومه باستمرار إلى عبادة الله تعالى ويقول لقومه { إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً} ويرد القوم عليه {قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ } [الشعراء :٧١] ونحن وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، أي أن عبادتهم للأصنام كانت مجرد تقليد أعمى .

فأخذ ابراهيم " عليه السلام " على عاتقه أن يحطم الأصنام {وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ } [الأنبياء :٥٧]

وكان مراده أن يفهمهم بصراحة بأنني سأستغلّ في النهاية فرصة مناسبة وأحطم هذه الأصنام ..

إلّا أنّ عظمة وهيبة الأصنام في نفوسهم ربّما كانت قد بلغت حداً لم يأخذوا معه كـلام إبراهيم مأخذ الجد، ولم يظهروا رد فعل تجاهه، وربّما ظنّوا بأنّ أي إنسان لا يسمح لنفسه أن يهزأ ويسخر من مقدسات قوم تدعم حكومتهم تلك المقدسات تماماً، بأية جرأة؟ وبأية **قوة ؟!**

ومن هنا يتضح أنّ ما قاله بعض من أنّ هذه الجملة قد قالها إبراهيم سراً في نفسه، أو بينها لبعض بصورة خاصة لا داعى له، خاصةً وأنه مخالف تماماً لظاهر القرآن، إضافة إلى أنّا سنقرأ بعد أن عبّاد الأصنام قد تذكروا قول إبراهيم، وقالوا: سمعنا فتى كان يتحدث عن مؤامرة ضدّ الأصنام .

على كل حال، فإنّ إبراهيم نفّذ خطته في يوم كان معبد الأوثان خالياً من الناس ولم يكن أحد من الوثنيين حاضراً.

إنّ عبدة الأوثان كانوا قد اتخذوا يوماً خاصاً من كلّ سنة عيداً لأصنامهم، وكانوا يحضرون الأطعمة عند أصنامهم في المعبد في ذلك اليوم، ثم يخرجون من المدينة أفواجاً، وكانوا يرجعون في آخر النهار، فيأتون إلى المعبد ليأكلوا من ذلك الطعام الذي نالته البركة في إعتقادهم. وبذلك خلت المدينة من سكانها ، فاستغل إبراهيم لهذه الفرصة الجيدة لتحطيم الأصنام، الفرصة التي كان إبراهيم ينتظرها منذ فترة طويلة، ولم يكن راغباً في إضاعتها. وحين دعاه قومه ليلاً للمشاركة في مراسمهم نظر إلى النجوم { فنظر نظرة في النجوم *__فقال إنّي سقيم__}.

وبهذا الشكل إعتذر عن مشاركتهم ، بعد إعتذاره تركوه وأسرعوا لتأدية مراسمهم فتولّوا عنه مدبرين .

وبهذه الطريقة بقي إبراهيم "عليه السلام " وحده في المدينة بعد أن تركها عبدة الأصنام متّوجهين إلى خارجها، فنظر إبراهيم حوله ونور الإشتياق لتحطيم الأصنام ظاهر في عينيه، إذ قربت اللحظات التي كان ينتظرها، وعليه أن يتحرّك لمحاربة الأصنام وإلحاق ضربة عنيفة بها، ضربة تهز العقول التافهة لعبدتها وتوقظهم.

فذهب إلى معبد الأصنام، ونظر إلى صحون وأواني الطعام المنتشرة في المعبد، ثم نظر إلى الأصنام وصاح بها مستهزئاً، ألا تأكلون من هذا الطعام الذي جلبه لكم عبدتكم، إنه غذاء دسم ولذيذ ومتنوع، ما لكم لا تأكلون؟ فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون. ثمّ أضاف، لم لا تتكلّمون؟ لم تعجز ألسنتكم عن النطق؟ ما لكم لا تنطقون. وبهذا استهزء إبراهيم بكل معتقداتهم الخرافية،

ومن دون أي شكّ فإنّه كان يعرف أنها لا تأكل ولا تتحدّث، وأنها جماد. وأراد من وراء ذلك عرض حادثة تحطيم الأصنام بصورة جميلة ولطيفة.

بعد ذلك شمر عن ساعديه، فأمسك الفأس وانقض على تلك الأصنام بالضرب بكل ما لديه من قوة فراغ عليهم ضرباً باليمين .

وعلى أية حال، فإنّ إنقضاض إبراهيم على الأصنام، حوّل معبد الأصنام المنظم إلى خربة موحشة، حيث لم يبق صنم على حالته الأولى، فالأيدي والأرجل المحطّمة تفرّقت هنا وهناك داخل المعبد، وكم كان منظر المعبد بالنسبة لعبدة الأصنام مؤثراً ومؤسفاً ومؤلماً في نفس الوقت.

وبعد إنتهائه من تحطيم الأصنام غادر إبراهيم - بكل هدوء وإطمئنان . معبد الأصنام عائداً إلى بيته ليعد نفسه للحوادث المقبلة، لأنه كان يعلم أن عمله كان بمثابة إنفجار هائل

سيهزّ المدينة برمتها ومملكة بابل بأجمعها، وسيحدث موجة من الغضب العارم، الموجة التي سيكون إبراهيم وحيداً في وسطها. إلا أن له رباً يحميه، وهذا يكفيه.

ابراهيم في محكمة النمروديين

وأخيراً إنتهى يوم العيد ورجع عبدة الأصنام فرحين إلى المدينة، فأتوا إلى المعبد مباشرةً، حتى يظهروا ولاءهم) للأصنام، وليأكلوا من الأطعمة التي تبرّكت - بزعمهم - بمجاورة الأصنام. فما أن دخلوا المعبد حتى واجهوا منظراً أطار عقولهم من رؤوسهم، فقد وجدوا تلاً من الأيادي والأرجل المكسّرة المتراكمة بعضها على البعض الآخر في ذلك المعبد المعمور، فصاحوا و قالوا من فعل هذا بآلهتنا ؟! ولا ريب أن من فعل ذلك فإنّه

لمن الظالمين) فقد ظلم آلهتنا ومجتمعنا و نفسه لأنه عرض نفسه للهلاك بهذا العمل.

إلا أن جماعة منهم . تذكروا ما سمعوه من إبراهيم وإزدرائه بالأصنام وتهديده لها وطريقة تعامله السلبي لهذه الآلهة المزعومة قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم).

صحيح أن إبراهيم كان شاباً، وربما لم يكن سنّه يتجاوز (١٦) عاماً، وصحيح أن كل خصائص الرجولة من الشجاعة والشهامة والصراحة والحزم قد جمعت فيه، إلّا أنّ من المسلم به أن مراد عبّاد الأصنام لم يكن سوى التحقير، فبدل أن يقولوا: إنّ إبراهيم قد فعل هذا الفعل، قالوا: إن فتى يقال له إبراهيم كان يقول كذا ... أي إنه فرد مجهول تماماً، ولا شخصيّة له في نظرهم.

إن المألوف - عادةً - عندما تقع جريمة في مكان ما، فإنّه ومن أجل كشف الشخص الذي قام بهذا العمل تبحث علاقات الخصومة والعداء، ومن البديهي أنه لم يكن هناك شخص في تلك البيئة من يعادي الأصنام غير إبراهيم، ولذلك توجهت إليه أفكار الجميع، و قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون عليه بالجريمة.

فنادى المنادون في نواحي المدينة : « ليحضر كلّ من يعلم بعداء إبراهيم وإهانته للأصنام»، فإجتمع كل الذين كانوا يعلمون بالموضوع، وكذلك سائر الناس ليروا أين ستصل عاقبة عمل هذا المتهم ؟

لقد حدثت ضجة وهمهمة عجيبة بين الناس لأنّ هذا العمل كان في نظرهم جريمة لم يسبق لها نظير من قبل شاب مثير للفتن والمتاعب، وكانت قد هزّت البناء الديني للناس.

حجة ابراهيم الدامغة

وأخيراً تشكلت المحكمة، وكان زعماء القوم قد إجتمعوا هناك، يقال: إن نمرود نفسه كان مشرفاً على هذه المحاكمة، وأول سؤال وجهوه إلى إبراهيم هو أن: «قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا

إبراهيم ؟ هؤلاء لم يكونوا مستعدين حتى للقول: أأنت حطّمت آلهتنا وجعلتها قطعاً متناثرة؟ بل قالوا فقط: أأنت فعلت بآلهتنا ذلك؟ فأجابهم إبراهيم جواباً أفحمهم، وجعلهم في حيرة لم يجدوا منها مخرجاً وقال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون

إن من أسس علم معرفة الجرائم أن يكون المتهم بادية عليه آثار الجريمة، والملاحظ هنا أن آثار الجريمة كانت باديةً على يد الصنم الكبير ، وفقاً للرواية المعروفة: إنّ إبراهيم جعل الفأس على رقبة الصنم الكبير.

لماذا تأتون إلي؟ ولماذا لا تتهمون إلهكم الكبير؟ ألا تحتملون أنه غضب علـى الآلهة الصغيرة، أو إنّه إعتبرهم منافسيه في المستقبل فعاقبهم؟ إن إبراهيم قد نسب العمل إلى كبير الأصنام قطعاً، إلّا أنّ كلّ القرائن تشهد أنه لم يكن جاداً في قصده، بل كان يريد أن يزعزع عقائد الوثنيين الخرافية الواهية، ويفنّدها أمامهم، ويُفهم هؤلاء أنّ هذه الأحجار والأخشاب التي لا حياة فيها ذليلة وعاجزة إلى الحد الذي لا تستطيع أن تتكلّم بجملة واحدة تستنجد بعبادها، فكيف يريدون منها أن تحل معضلاتهم؟! ونظير هذا التعبير كثير في محادثاتنا اليوميّة، فنحن إذا أردنا إبطال أقوال الطرف المقابل نضع أمامه مسلّماته على هيئة الأمر أو الإخبار أو الإستفهام، وهذا ليس كذباً أبداً، بل الكذب هو القول الذي لا يمتلك القرينة معه.

مؤامرة حرق ابراهيم " عليه السلام"

مع أنّ عبدة الأوثان أسقط ما في أيديهم نتيجة إستدلالات إبراهيم العملية والمنطقية، وإعترفوا في أنفسهم بهذه الهزيمة، إلّا أنّ عنادهم وتعصبهم الشديد منعهم من قبول الحق، ولذلك فلا عجب من أن يتخذوا قراراً صارماً وخطيراً في شأن إبراهيم، وهو قتل إبـراهيـم بأبشع صورة، أي حرقه وجعله رماداً .

هناك علاقة عكسية بين القوّة والمنطق عادةً، فكلّ من إشتدت قوته ضعف منطقه، إلا رجال الحق فإنّهم كلّما زادت قوتهم يصبحون أكثر تواضعاً ومنطقاً. وعندما لا يحقق المتعصبون شيئاً عن طريق المنطق، فسوف يتوسلون بالقوة فوراً، وقد طبقت هذه المؤامرة في حق إبراهيم تماماً كما يقول القرآن الكريم: {قالوا حرقوه وانصروا آلتهكم إن كنتم فاعلين }

إن المتسلّطين المتعنّتين يستغلون نقاط الضعف النفسيّة لدى الغوغاء مـن النـاس

لتحريكهم ـ عادةً ـ لمعرفتهم بالنفسيات ومهارتهم في عملهم وكذلك فعلوا في هذه الحادثة، وأطلقوا شعارات تثير حفيظتهم، فقالوا: إنّ آلهتكم ومقدّساتكم مهددة بالخطر، وقد سُحقت سنة آبائكم وأجدادكم، فأين غيرتكم وحميّتكم؟! لماذا أنتم ضعفاء أذلاء؟ لماذا لا تنصرون آلهتكم؟ احرقوا إبراهيم وانصروا آلهتكم ـ إذا كنتم لا تقدرون على أي عمل ـ ما دام فيكم عرق ينبض، ولكم قوة وقدرة. أنظروا إلى كل الناس يدافعون عن مقدّساتهم، فما بالكم وقد أحدق الخطر بكلّ

مقدساتكم؟! والخلاصة، فقد قالوا الكثير من أمثال هذه الخزعبلات وأثاروا الناس ضد إبراهيم بحيث أنهم لم يكتفوا بعدة حزم من الحطب تكفي لإحراق عدة أشخاص، بل أتوا بآلاف الحزم وألقوها حتى صارت جبلاً من الحطب ثمّ أشعلوه فاتقدت منه نار مهولة كأنها البحر المتلاطم والدخان يتصاعد إلى عنان السماء لينتقموا من إبراهيم أوّلاً، وليحفظوا مهابة أصنامهم المزعومة التي حطمتها خطته وأسقطت أبهتها ..

ضجيج الملائكة

إن الناس . سعوا أربعين يوماً لجمع الحطب، فجمعوا منه الكثير من كل مكان، وقد وصل الأمر إلى أن النساء اللاتي كان عملهنّ الحياكة في البيوت، خرجن وأضفن تلا من الحطب إلى ذلك

الحطب، ووصى المرضى المشرفون على الموت بمبلغ من أموالهم لشراء الحطب، وكان المحتاجون ينذرون بأنهم يضيفون مقداراً من الحطب إذا قضيت حوائجهم، ولذلك عندما أشعلوا النار في الحطب من كل جانب إشتعلت نار عظيمة بحيث لا تستطيع الطيور أن تمرّ فوقها.

من البديهي أن ناراً بهذه العظمة لا يمكن الإقتراب منها، فكيف يريدون أن يلقوا إبراهيم فيها، ومن هنا اضطروا إلى الإستعانة بالمنجنيق، فوضعوا إبراهيم عليه وألقوه في تلك النّار المترامية الأطراف بحركة سريعة. عندما وضعوا إبراهيم على المنجنيق، وأرادوا أن يلقوه في النار، ضجت السماء والأرض

والملائكة، وسألت الله سبحانه أن يحفظ هذا الموحد البطل وزعيم الرجال الأحرار. إن جبرئيل جاء للقاء إبراهيم، وقال له: ألك حاجة ؟ فأجابه إبراهيم بعبارة موجزة: «أمـا

إليك فلا إني أحتاج إلى من هو غني عن الجميع، ورءوف بالجميع. وهنا إقترح عليه جبرئيل فقال: فاسأل ربّك، فأجابه: حسبي من سؤالي علمه بحالي». ناجى إبراهيم ربه في تلك الساعة: «يا أحد يا أحد، ياصمد ياصمد، يامن لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، توكلت على الله».

النار حديقة غناء

وعلى كل حال، فقد ألقي إبراهيم في النار وسط زغاريد الناس وسرورهم وصراخهم، وقد أطلقوا أصوات الفرح ظانين أنّ محطّم الأصنام قد فني إلى الأبد وأصبح تراباً ورماداً.

لكن الله الذي بيده كل شيء حتى النار لا تحرق إلا بإذنه، شاء أن يبقى هذا العبد المؤمن المخلص سالماً . من لهب تلك النّار الموقدة ليضيف وثيقة فخر جديدة إلى سجل إفتخاراته

وكما يقول القرآن الكريم: قلنا يانار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم والمعروف أن النار قد بردت برداً شديداً إصطكت أسنان إبراهيم منه، وحسب قول بعض: إن الله سبحانه لو لم يقل: سلاماً، لمات إبراهيم من شدة البرد. وكذلك نقرأ في رواية مشهورة أن نار النمرود قد تحوّلت إلى حديقة غناء. حتّى قال بعض إنّ تلك اللحظات التي كان فيها إبراهيم في النّار، كانت أهدأ وأفضل وأجمل أيّام عمره. ٢ لا يخفى أن الوضع قد إختلف تماماً ببقاء إبراهيم سالماً، وخمدت أصوات الفرح، وبقيت الأفواه فاغرة من العجب، وكان جماعة يتهامسون علناً فيما بينهم حول هذه الظاهرة العجيبة، وأصبحت الألسن تلهج بعظمة إبراهيم وربّه، وأحدق الخطر بوجود نمرود وحكومته، غير أنّ العناد ظلّ مانعاً من قبول الحق، وإن كان أصحاب القلوب الواعية قد إستفادوا من هذه الواقعة،وزاد إيمانهم مع قلتهم.

وعندما ألقوا إبراهيم في النّار، كان نمرود على يقين من أن إبراهيم قد أصبح رماداً، أمـا عندما دقق النظر ووجده حيّاً، قال لمن حوله : إني أرى إبراهيم حيّاً، لعلي يخيل إلي! فصعد على مرتفع ورأى حاله جيداً فصاح نمرود: يا إبراهيم إنّ ربّك عظيم، وقد أوجد بقدرته حائلاً بينك وبين النار؛ ولذلك فإنّي أريد أن أقدم قرباناً له، وأحضر أربعة آلاف قربان لذلك، فأعاد إبراهيم القول عليه بأن أي قربان - وأي عمل - لا يتقبل منك إلا أن تؤمن أوّلاً. غير أن نمرود قال في الجواب: فسيذهب سلطاني وملكي سُدىً ،إذن، وليس بإمكاني أن أتحمل ذلك! على كل حال فإنّ هذه الحوادث صارت سبباً لإيمان جماعة من ذوي القلوب الواعية برب إبراهيم ، أو يزدادوا إيماناً، وربّما كان هذا هو السبب في عدم إظهار نمرود ردّ فعل قوي ضد إبراهيم، بل إكتفى بإبعاده عن أرض بابل.